رسالة مفتوحة إلى الرئيس بوش

الكولونيل شربل بركات

الآن وقد تم تخليص العراق من ديكتاتورية البعث، هل يمكن للشعب العراقي أن يتـــأمل بـــالخير والاستقرار؟ هل يمكن أن تنتهي مشاريع الهيمنة وكم الأفواه؟ هل يمكن أن يتأمل الناس بالخلاص من الشر ومروجيه؟ أم أن مسلسلا جديدا من الثورات والثورات المضادة سوف يجعـــل النـــاس تترحم على ظلم صدام مقارنة بالمستقبل الغامض المختبئ تحت عمامات المشايخ الذين يتوقـــون، كما في طهران وبيروت، إلى ثورة خمينية تدخل العراق في صراع جديد نحو التخلف والرجعية؟ هل تصبح الولايات المتحدة وبريطانيا، وهما من رموز الديمقراطية، صـــورا جديـــدة لمرحلـــة الاستعمار واستغلال مصائب الناس، أم مثالا واضحا لمستقبل الشعوب المنفتحة والمتعاونة، والتي لا ترضى بالتخلف في زمن القرية العالمية، ولا بالتعنت في زمن الانفتاح، ولا بالتقوقع في زمـــن السوق الحرة؟

الولايات المتحدة يا سيادة الرئيس، وقد تحدت العالم ومظاهراته، ورأت الصواب وحددت الـــداء، مسؤولة اليوم أكثر من أي يوم مضى عن آمال وتطلعات شعوب المنطقة الشرق أوسطية. فهذه قد سئمت الحروب، وكلت من النظريات القومية والوطنية، النضالية والثورجية. لقد صور لنا دومـــا أن كل تطور هو مشروع هيمنة جديد، وأن كل تقدم هو طريق آخر نحو العبودية. لقد تاجر كـــل زعيم من زعماء هذه المنطقة بفلسطين أولا، وبمحاربة الاستعمار وأدواته ثانيا، وبالحفاظ علـــى ثروات الأمة وتراثها. وتغنى الكل ببطولاتها وأيامها، وترحم حتى على الظـــالمين مـــن قادتـــها. ولكنهم أبقوها مشروع دول متقاتلة، لا تعرف أن تتفرد أو أن تتجمع فتستقر وتبدأ مسيرة التطور. وها هي ثرواتها هباء، وأيامها بكاء على أطلال التاريخ، ومستقبلها انتظار لآتي لا يمثل أمانيـــها ولا تطلعات أهلها.

فيا أيها الرئيس، وأنت تمثل اليوم أقوى دولة في العالم، وتمثل أهم مشاريع الحضارة والتطور، لا نريد منك المستحيل، ولا ننتظر أن تكون "المصلح الاجتماعي"، أو المحافظ على البلاد أكثر مـــن أهلها، ولا نحلم أن نراك تحررنا من دون ثمن، وتجعلنا نتقدم من دون أجرة، ولكننـــا نســـألك أن تمنحنا الفرصة كي نتعلم كيف نطور مفهوم الحرية فلا تعود قهرا للآخر، كما فعلتم في بلادكـــم، وكيف ننظم علاقات الناس والمجموعات الحضارية المختلفة والمتخاصمة أحيانا، فننعـــم بـــالعدل والاستقرار ونبدأ بالسعي نحو التطور، ولا نخاف أن نبني ليأتي من يهدم الذي بنيناه.

لا تجعل المنظرين يا فخامة الرئيس يغيرون مفهومك للحرية أو العدالة أو التقدم، وتسلم معهم بأن العرب لا يمكنهم أن يحكموا بالحرية والديمقراطية. وكما قال السيد رامسفيلد لماذا لا يمكن للعرب التقدم كما فعل اليابانيون والألمان. وبالفعل فقد غيرت الولايات المتحدة في تجربة اليابان وألمانيا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية نظرة الناس للمنتصر وأعطت مثالا عن تقدم يسهم في استقرار العالم وهو من مصلحة الدول الكبرى المتقدمة أكثر من النظريات القديمة التي كانت تقول بإبقاء الدول المقهورة في حالة من البؤس والتخلف ليسهل حكمها، وها هي اليابان أهم عنصر استقرار في الشرق الأقصى لا بل العالم، وها هي ألمانيا عنصر ثبات في السياسة العالمية ولو لم توافق الرأي مع الولايات المتحدة حول العراق. والدول المتطورة اليوم، وهي دول منتجة، بحاجة طبعا أكثر فأكثر لأسواق تصريف، ولكن هل أن الفقراء والذين لا ينعمون بالاستقرار يمكنهم أن يشكلوا أسواق تصريف، خاصة لمنتجات الدول الصناعية الكبرى؟ بالطبع لا، والكل يعرف اليوم حاجة المنتجين لزبائن قادرين على الشراء وعلى التنعم بالتكنولوجيا الحديثة ومنتجاتها. لم تعد المواد الأولية أو مصادر الطاقة هي المطلب الرئيسي في عالم اليوم بل التكامل الاقتصادي والذي يزداد بالاستقرار ويزيده.

قد يقول قائل لماذا هذا الكلام وأين التخوف ومما؟

الخوف من أن تنصرف الدول المجاورة في سوريا وإيران إلى تعبئة الناس وتحضير المظاهرات التي تبدأ سلمية ثم تأخذ شيئا فشيئا طريق العنف الذي يصل إلى التخريب والانتحار. الخوف أن تبقى المدارس التي تربي على الحقد، المتسترة بالدين، والمحتجبة خلف آياته المفسرة بحسب الأهواء، والتي تنشئ جيلا جديدا من أمثال جيل حزب الله اللبناني، وجيل حماس الفلسطيني، وجيل بن لادن وقاعدته. وطالما بقي الأئمة في طهران متربعين على عروش تتغذى على الحقد، إلى جانب التشدد الأصولي في المدرسة الوهابية، وطالما بقي البعث السوري، رديف بعث العراق، مستبيحا لبنان وشعبه، مطلقا العنان لحزب الله وأئمته، وطالما بقي الجهاد والحماس في فلسطين عثرة أمام أي تفاهم أو سلام، ومدرسة عرفات التخريبية عنوانا لهذا الشعب، فإن العراق قد يبقى بركانا جاهزا للانفجار، والشرق الأوسط ساحة لتنامي الأحقاد ومنبتا للعنف والتخريب.

مستر بوش، لا تخف من تنفيذ سياسة من نوع جديد تستأصل العنف ومدبريه ولا ترتدع عن ضرب الإرهاب ومن خلفه، لأن ١١ أيلول بدأ في بيروت (السفارة الأميركية والمارينز) وعدم مواجهة الإرهاب يومها قادت العالم إلى كل مسلسل الذل، الذي بدأ في بيروت انتهى بدولة في أفغانستان ثم جر إلى العراق، ولا نريده أن يتطلب المزيد من الدماء والخراب. ما تريده أمهات

العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وإسرائيل وإيران وغيرهم، أن يتعلم أبناؤهم على العيش والتنافس بسلام وأمن لا على القتل والحقد والثياب السوداء والدموع والخيبة.

فهل يعطيكم الله القدرة على فرض سلام الشرق الأوسط ونشر رايات الحرية وتزيينـــه بالتفـــاهم والاستقرار؟ نرجو أن تكون هذه الأعياد اليوم وعدا بقيامة سلام عالمي جديد ينطلق من الشـــرق الأوسط وينتشر على العالم بأكمله خيرا وعدلا ورجاء.

٢٠٠٣/٤/٢٠